تجاهل العارف – قراءة تداولية

أ.م.د. اسماء سعود ادهام

جامعة الموصل/ كلية الآداب

Awareness-Ignorance / A Pragmatic Reading

Asst. Prof. Asma' Suood Idham

University of Al-Mosul / College of Arts

Abstract

Focusing on the title represents the starting point for the awareness because our relation with the text begins with its title to comprehend the meaning of the text. The title of the research (Awareness-Ignorance) which is formed as contradictory duality because (ignorance) is the opposite of (awareness) so the relation between the text and the receiver is dual.

مدخل إلى العنوان:

يمثل الوقوف على العنوان نقطة انطلاق للوعي به، إذ تبدأ صلتنا بالنص من عنوانه وبعدنا دارسين تنطلق قراءتنا للنفاذ إلى مقولة النص من لدن عنوانه تمهيدا لتأمله ودرسه، والعنوان الرئيس للبحث (تجاهل العارف) الذي جاء على شكل ثنائية متقابلة بين (تجاهل) و (العارف) وبضدها تعرف الأشياء، والضد يبرز حسنه الضد، ومن هنا أصبح تواصل المتلقي مع التقابل ذا طبيعة ثنائية لا أحادية، وهي طبيعة تعنى بالنظر الموازن بين الطرفين، بما يبلور الدلالة داخل النص، وتمكنها من إحداث التأثير المرجو في رحاب جماليات التلقي، فـ (الجهل) نقيض العلم وقد جهله فلان جهلا وجهالة وجهل عليه، وتجاهل أظهر الجهل... أي أري الجهل في نفسه وليس به[1]، والعارف: العرفان العلم... وهو ضد الجهل... وعلم الشيء بمعنى عرفته وخبرته[2]، والعلم والمعرفة ينفصلان إذ ثمة فرق بينهما، فالمعرفة متوجهة إلى ذات المسمى والعلم متوجه إلى أحوال المسمى فإذا قلت: عرفت زيدا فالمراد شخصه وإذا قلت علمت زيدا فالمراد به العلم بأحواله من فضل ونقص[3]، فالمعرفة هي أدراك الشيء بتفكر وتدبر فهي اخص من العلم لأنها علم يعين الشيء مفصلا عما سواه، وتستعمل في العلم القاصر المتوصل إليه بتفكر، والعلم يكون مجملا ومفصلا[4]، ويضادها الإنكار ويضاد العلم الجهل إذن أمامنا ثنائية قائمة على التقابل المعنوي بين المعرفة والجهل:

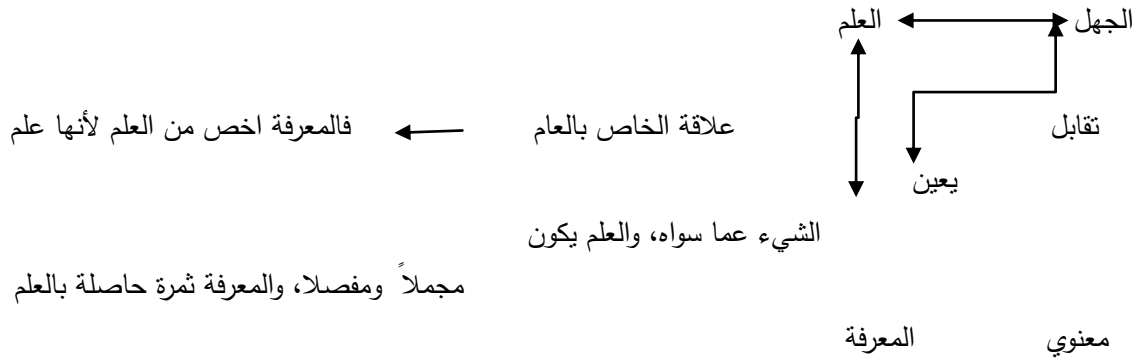

ولهذا يقال في الباري عز وجل (يعلم) ولا يقال (يعرف) ولا (عارف) لا اسما ولا خبرا فلا يقال إن الله عارف لأن المعرفة تكون في العلم وتكون بالظن، وأيضا يقولون في المعرفة بالنسبة لوصف الله بها (استكشاف ما بعد اللبس) والله – سبحانه وتعالى لم يتقدم علمه لبس ولهذا لا يطلق على الله عارف وإنما يقال عالم وهذه احد الأسباب التي دفعت السكاكي

1 – ينظر: لسان العرب، ابن منظور: 5 / 290 (مادة جهل)
2 – ينظر: م. ن: 184/18 (مادة عرف)
3 – ينظر: الجامع لأحكام القران، القرطبي: 353/1
4 –ينظر: الفروق اللغوية، العسكري / 81

إلى تسمية هذا الفن في القرآن الكريم بـ (سوق المعلوم مساق غيره) رغبة منه في عدم المساس بالشاهد القرآني من ذكر هذه الصفات، أما الجزء الثاني من العنوان فسنوضحه في الفقرات القادمة.

تجاهل العارف مقاربة اصطلاحية:

إن تجاهل العارف فن بلاغي بديعي طويل التاريخ تعددت مصطلحاته واختلفت مفاهيمه في البلاغة قديما ولغرض المقارنة والتوضيح والتعرف على العناصر المشتركة التي تتمثل في تلكم التعريفات يمكننا استرجاع مجموعة مختارة منها في الجدول الأتي: التعريفات يمكننا استرجاع مجموعة مختارة منها في الجدول الأتي:

المؤلف	المصطلح	التعريف	الكتاب والصفحة
ابن المعتز (296هـ)	.....	عده من محاسن الكلام دون أن يذكر له تعريفا مكتفيا بالتمثيل له بشواهد	البديع /162
العسكري (395هـ)	تجاهل العارف ومزج الشك باليقين	هو إخراج ما يعرف صحته مخرج ما يشك فيه ليزيد بذلك تأكيدا	الصناعتين / 412
ابن رشيق (463هـ)	التشكك	وهو من ملح الشعر وطرف الكلام وله في النفس حلاوة وحسن موقع بخلاف اللغو والإغراق وفائدته الدالة على قرب الشبهين حتى لا يفرق بينهما ولا يميز احدهما عن الآخر	العمدة: 2 /66
السجلماسي (بعد 600)	التجاهل، إرخاء العنان، تجاهل العارف	هو جنس متوسط تحته نوعان: الأول التشكيك والثاني: التجاهل وقال في الثاني ويسمى أيضا بتجاهل العارف وإرخاء العنان والتجاهل مقول على هذا النوع من جهة أن فيه ضربان التغاضي والمسامحة والمجاملة، وقول جوهره هو إخراج القول مخرج الجهل وإيراده مورد التشكك في اللفظ دون الحقيقة لضرب من المسامحة وحسم العناد	المنزع البديع / 277
المؤلف	المصطلح	التعريف	الكتاب
السكاكي (627هـ)	سوق المعلوم مساق غيره	قال ولا أحب تسميته بالتجاهل وتحدث عنه في تنكير المسند إليه إذ قال وباب التجاهل في البلاغة.....	مفتاح العلوم / 537 و287
ابن أبي الإصبع المصري (654هـ)	تجاهل العارف	وهو سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلا منه ليخرج كلامه مخرج المدح والذم أو ليدل على شدة التدله في الحب أو لقصد التعجب أو التقرير	تحرير التحبير /135
العلوي (656هـ)	تجاهل العارف	إن الشاعر أو الناثر يسال عن شيء يعرفه سؤال من لا يعرفه ليعلم إن شدة الشبه بالمشبه قد أحدثت عنده ذلك	نضرة الاغريض /192
العلوي (749هـ)	التجاهل	وهو أن تسال عن شيء تعلمه موهما انك لا تعرفه وإنما خالجك فيه الشك والريبة وشبهة عرضت بين المذكورين وهو مقصد من مقاصد لاستعارة يبلغ فيه الكلام الذروة العليا....	الطراز: 45/3

وكما هو ملاحظ لا يصعب من خلال هذا الجدول إيجاد عناصر مشتركة بين تعريفات ومفاهيم تجاهل العارف الدارجة من عالم إلى آخر والخالية من أية إضافة مفيدة أو توضيح ولكن يمكن أن نصل إلى مقاربة اصطلاحية بين وجوه التشابه والاختلاف فيها لما يلخص لنا من خصائص متعددة للتجاهل نجملها بالاتي:

1- لم يذكر ابن المعتز تعريفا لتجاهل العارف واكتفى بالتمثيل له

2- تداخل مفهوم تجاهل العارف مع الإعنات و التشكيك، فقد ذكر الحلبي إن لهذا الفن تسميتين أحداهما: (تجاهل العارف) والأخرى (الإعنات)، ولكن الإعنات هو أوّل مصطلحات (اللزوم) ظهوراً، ذكره ابن المعتز وعدّه من محاسن الكلام. وسمّاه إعناتاً لأنّ الشاعر يشقّ عليه التزامه فيه على غير ما عهد من نظم، ولذلك قال: "ومن إعنات الشاعر نفسه في القوافي وتكلفّه من ذلك ما ليس له، قول الشاعر:

عَصَانِي قَوْمِي في الرَّشادِ الّذِي بهِ

أَمَرْتُ وَمَنْ يَعْصِ المُجَرِّبَ يَنْدَمِ

فَصَبرْاً بَني بَكْرِ على المَوتِ أَنَّني

أَرَى عارِضاً ينْهَلُّ بالْمَوتِ وَالدَّمِ [1]

ويظهر فيه اللزوم بمجيء حرف الدال قبل حرف الروي الميم، فالشاعر يكلّف نفسه بالتزام حالة معينّة في النظم. ولكنّه أي-الإعنات- لم يتردّد كثيراً في كتب البلاغة، أمّا لتعلقه بالشعر دون النثر. أو أنّه أُهْمِلَ لئلاّ يوصف به الشاهد القرآني[2]، أما في ما يخص مصطلح التشكيك فإن هذا اللون البديعي مما اخترعه المصري الذي يرى فيه أن المتكلم يرى شيئا شبيها بشيء فشكك نفسه فيه لقصد تقريب المشبه من المشبه به ثم يعود عن المجاز إلى الحقيقة فيزيل ذلك التشكيك فإن لم يعد إلى الحقيقة فهو تجاهل العارف وإن عاد فهو التشكيك المحض. فتجاهل العارف والتشكيك متقاربان إلا أن التشكيك فيه عودة إلى الحقيقة أما تجاهل العارف فليس فيه عودة إليها.

3- تعدد تسميات هذا الفن ما بين تجاهل العارف والتجاهل وسوق المعلوم مساق غيره وإرخاء العنان ومزج الشك باليقين والتشكك، فقد سماه العسكري تجاهل العارف ومزج الشك باليقين ثم تكررت تسميته عند اغلب البلاغيين كما هو مبين في الجدول، واكتفى البعض الآخر بتسميته بالتجاهل بترك المضاف إليه العارف، وذكره السجلماسي باسم (إرخاء العنان) وربما أراد بذلك أن إتباع هذا الفن يظهر جانبا من المسامحة وحسن العناد وهذا ما لاح في كلامه، أما القيرواني فقد أطلق عليه التشكك وهو عنده من ملح الشعر وطرف الكلام وهذا يقودنا إلى مسالة مهمة تتعلق بارتباط تجاهل العارف **بالمفارقة اللغوية** التي يتم من خلالها إدراك انتاج معنى المفارقة والانحراف الدلالي، من خلال نسيج اللغة، والتوجهات المتعددة لمقاصد المفارقة، أي ما تنتجه دوال اللغة من تناقضات متولدة عن تعارضها، وهي تتوفر في الآلية التركيبية لتجاهل العارف التي يمكن وصفها جماليات لفظية تؤدي إلى حصول التناقض والتضاد في بنية القول وتغيير منطق المعنى عن وجهه المعتاد من اجل التشويش على المتلقي، أو حثه على التفكير وتحفيز حواسه الإدراكية ليتم استدراجه وإقامة الحجة عليه، ومن هذا المنطلق تمثل آلية تجاهل العارف قوانين لإنتاج البنية المفارقة، فالمعنى في تجاهل العارف يتحقق عبر رسالتين مفارقتين الأولى تتمثل بالمعنى الحرفي الذي يتلقاه المتلقي والقائم على الاستفهام، وهناك المعنى الحقيقي الذي يمثل مقصدية المتكلم، وهذه المقصدية لا يدركها المتلقي إلا بعد فك شفرة الرسالة الحرفية وتفسيرها، فإذا توقف عند المعنى الحرفي فالمتلقي يغدو غير مدرك للمعنى، وإذا ما تجاوز المعنى الحرفي إلى المعنى المقصدي فإنه يغدو فاهما لمعنى المفارقة الناتج من تجاهل العارف ولكن فهمه هذا جاء بعد تمثل ذهني وتفسيري لسياق النص.

1 – ينظر: البديع / 75

2 – ينظر: إشكالية المصطلح البلاغي دراسة تطبيقية في مصطلحات علم البديع، ماجدة المذخوري، رسالة ماجستير/ 79

فتصبح بنية الخطاب متشكلة من:

المخاطِب ⟵ الرسالة ⟶ المخاطَب { = متلقي للمفارقة – تجاهل العارف
- ويكون مضطر إلى ممارسة قراءة تعاقبية كي يدرك المعنى الذي قد يحصل على مستوى الجملة

فالإرسال يحدث من طرف واحد أما المتلقي فهو رقم مفتوح غير خاضع للحصر فتتعدد المفاهيم بتعدد القراءات لأن المعنى من الصعب إدراكه.

4- جاءت صيغة تجاهل على (تفاعل) وهي صيغة موضوعة لتري المخاطَب الفاعل على صفة ليس هو عليها كقولنا تعامى عن الحق وما به عمى وتجاهل وما به جهل هذا ما تفيده باعتبار وضعها.

5- ارتباط تجاهل العارف بعلم المعاني والبيان مع أنه من فنون علم البديع فقد بحثه السكاكي في تنكير المسند إليه وذكر التجاهل في البلاغة، وهناك من عده من علم البيان بعده مقصدا من مقاصد الاستعارة أو قائما على التشكك بين الشبيهين، ولما كان تجاهل العارف صفة المتكلم دون الكلام، باسم ما هو صفة المتكلم به فكان من محسناته فنقل إلى علم البديع، وعليه نستطيع القول إن تجاهل العارف وإن كانت بنيته التركيبية قائمة على الاستفهام إلا أن سياقاته البيانية تخرج الاستفهام إلى معان تحددها مقصدية المتكلم، فتعرض الأفكار والمعاني في صورة فنية تعتمد في بنائها على أساليب علم المعاني وفنون علم البيان.

البلاغة والتداولية والاتصال:

إن من ابرز معطيات البحث البلاغي عند العرب ما قام على اشتراط موافقة الكلام لمقتضى الحال ويستدعي ذلك توجيه العناية إلى كيفية تشكيل السياق الخطابي استنادا إلى جميع الأوضاع المؤثرة في توجيه هذا السياق وجعله في مستوى المقام المحيط به، إذ يكون لوضع المخاطَب الاجتماعي والفكري والنفسي والثقافي أثر كبير في تصرف المخاطِب في تشكيله خطابه ليصل إلى درجة تحقيق الانسجام والتوافق الذهني والموقفي، أي أن البلاغة تتجلى في إيصال البنية الدلالية إلى المخاطَب عبر هيئات لغوية بليغة تتوفر فيها السمات التعبيرية البلاغية، الأمر الذي يتمحور على الجانب العقلي المسؤول عن تكوين الهيئة الدلالية والجانب اللساني الذي ينحدر من الجانب العقلي أيضا، وحينما يتوفر في الكلام هذان المبدءان تتحقق فيه الصبغة البلاغية التي تجعله مختلفا عن الكلام العادي وهذا ما يؤدي إلى أن يكون لهذا الكلام اثر قوي في المخاطَب.

فكل من المقام والمخاطِب والمخاطَب يمثل العملية التواصلية إذ لا يمكن للدلالة أن تتضح إلا بوجود عناصر الخطاب، وهذا ما وضحه تمام حسان عندما قدم قراءة للمصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة إذ يقول ((وعندي أن المعنى البلاغي للفظ البلاغة على معنى الإبلاغ أو التواصل الذي هو موضوع من موضوعات علم الاتصال))[1]، فإذا ما كانت البلاغة تشكل الوصول فالتداولية تعنى بـ((العلاقة بين بنية النص وعناصر الموقف التواصلي المرتبطة به بشكل منتظم، مما يطلق عليه سياق النص، ويأتي هذا ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي يشار إليها في البلاغة بعبارة (مقتضى الحال) التي أنتجت المقولة الشهيرة لكل مقام مقال))[2]، فالمقام يشتمل على واقع فعلي أو تخييلي، ومتلق حقيقي أو اعتباري

أي المقام = السياق الخارجي + المتلقي[3]

على اعتبار أن المقام هو الأمر الداعي إلى إيراد الكلام مكيفا بكيفية ما سواء كان ذلك الأمر الداعي ثابتا في الواقع، أو كان ثبوته بالنظر لما عند المتكلم.

فكل مقام يقتضي بناء لغويا مناسبا له، وكل مقام له خصوصية في الصورة التي يورد عليها الكلام (مقال)

1 – المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة، بحث /87
2 – بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل /98
3 – انغلاق البنية وانفتاحها في البنيوية والتداولية والبلاغة العربية، أسامة البحيري، بحث / 778-779

وبهذا تدخل الرسالة في مفهوم المقام، ويدخل فيه المخاطِب ضمنيا فأصبح:

المقام = السياق الخارجي + المتلقي + الرسالة

إذن لكل مقام مقال = السياق الخارجي + المتلقي + الرسالة + المرسل[4]

و من البدهي أنه لابد أن يكون بين المبدع – المخاطِب والمتلقي – المخاطَب شفرة لغوية متفق عليها، وقناة اتصال معلومة، فالتداولية والبلاغة كلاهما يركزان على التشكيل اللغوي الذي يكون الموقف المعين فتتفقان في اعتمادهما على اللغة أداة لممارسة الفعل على المتلقي على أساس أن النص اللغوي في جملته إنما هو نص في موقف فكل رسالة لها قصدها وموقفها وظروف تلقيها[5]، وعليه فـ ((البلاغة تداولية في صميمها إذ إنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما))[1] فالهدف من النص هو الإيصال والتواصل، ومادامت العلاقة بين المخاطَب والمخاطِب تقوم على مسألة البيان والتبيين، فالبيان يتعلق بالأول والتبيين يتعلق بالثاني,

البعد التداولي لتجاهل العارف:

إن اللغة لا تدرس تداوليا بوصفها نظاما من العلاقات النحوية الشكلية بل بوصفها معاني ووظائف يستعملها الباث للتعبير عن المغزى الكلامي الذي يحدده العرف ومقاصد المتكلم، وتجاهل العارف فن قائم على الخطاب الاستفهامي الذي إطاره الدلالي قائم على أن المخاطِب ((يريد من المخاطَب أمرا لم يستقر عند السائل))[2]، ويستمد هذا الخطاب من معين الخطاب الإخباري بجعل الاستفهام استخبارا [3]، لاحتضان الخطاب الإخباري معلومات ومضامين زمانية أو مكانية أو حالية..... يبحث التركيب الاستفهامي عن كشفها واستظهارها بتقنياته الخاصة بهذه المعلومات الدلالية ولذلك عد التركيب الإخباري جملة حاضنة للشيء الذي تستخدم هذه الأدوات في السؤال عنه، وشان الخطاب الاستفهامي شان أنواع الخطاب الأخرى في تأدية الوظيفة التعبيرية والإدراكية الناجمة عن تداعيات السياق الاستفهامي القاضي بتكوين حلقة كلامية ديناميكية متواصلة بين طرفي الخطاب بفعل عمليتي الإثارة والاستجابة [4]، المتبادلتين بينهما، مما يمد فعل السؤال والجواب بوظيفة ثنائية (تعبيرية وإدراكية)ويمكن توضيح ذلك بالمعادلة الآتية:

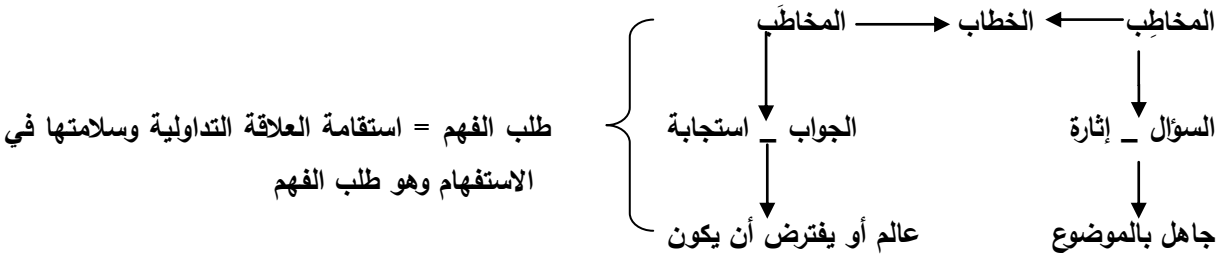

إذن الناتج من هذه المعادلة طلب الفهم، وإذا ما انتفت هذه الخاصية تحول الاستفهام إلى انجازات أخرى يتحول بموجبها التركيب من استفهام حقيقي إلى تجاهل العارف الذي لا يهدف إلى الحصول على إجابة وإنما يستفهم لنكتة بلاغية يكشف عنها السياق وتدل عليها قرائن الأحوال، فيهدف إلى تحقيق أفعال إنجازيه وهذا يقتضي من المخاطَب أن لا يقوم بقراءة حرفية للملفوظ أو على الأقل لا يكتفي بتلك القراءة، ونتيجة لذلك تظهر القوة الانجازية الاستفهامية للسؤال البلاغي ضعيفة لتحل محلها قوة انجازية أخرى كالتقرير والتوبيخ والإرشاد والتعجب ... الخ، فعملية التواصل في (تجاهل العارف) تكون كالآتي:

4 – ينظر: م. ن /779
5 – بلاغة الخطاب وعلم النص /97-98
1 – علم لغة النص ن سعيد البحيري / 23
2 – الكتاب، سيبويه: 99/1
3 – ينظر: م. ن: 129/2
4 – ينظر: علم الدلالة، احمد مختار عمر /60-61

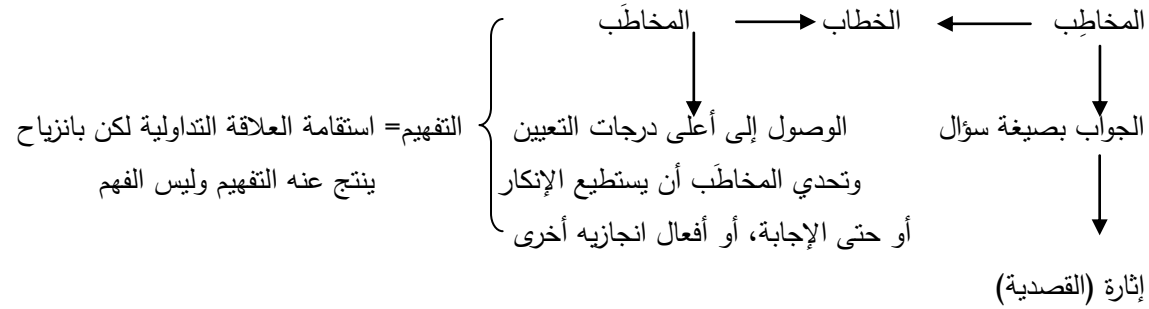

فالعدول الحاصل في البنية الاستفهامية إلى بنية تجاهل العارف تعد علاقة دالة على بلاغة المخاطِب، وفنية الخطاب، لأنها تكسب النص غموضا فنيا يدخله في دائرة الاحتمالات، ويكثف قيمته الدلالية والجمالية، فالمخاطِب يريد توجيه السؤال لعلمه بمضمون الحدث وإرادة التأثير في المخاطَب ودفعه إلى الإقرار بما فعله أو إثبات شدة إنكار المخاطِب أو توبيخه أو غيرها من الانجازات التي تدل على أن المخاطَب فعل فعلا يستلزم التوجيه فيه، والواقع ان تقسيم الكلام على هذه المعاني والمقاصد –الأغراض قائم على الأحوال المختلفة للكلام بحسب المتكلم ومقصوده، والسامع وتأويله، والمقام وسياقاته، وهذه كلها شروط تداولية الخطاب.

إذن هناك صلة وثيقة بين تجاهل العارف والاتصال فالتداولية تعنى بثلاثة معطيات كما ذكرنا لما لها من دور فعال في توجيه التبادل الكلامي وهي (المخاطَب والمخاطِب والسياق – الحال والمقام) وهذه العناصر متوفرة في الآلية التركيبية لتجاهل العارف الذي هو كما قلنا (سؤال المخاطِب) لـ (المخاطَب) عن شيء يعلمه ليخرج الكلام إلى (القصدية) المرادة من المخاطِب ليحقق الإفادة لدى (المخاطَب)، وتعد القصدية أساس عملية التواصل والإبلاغ، وبها وحدها يمكن عد المتكلم متكلما، وقد قادت هذه الفكرة البلاغيين العرب إلى عرض مفهوم رائد للفعل، فميزوا بين كون المتكلم حاكيا أو واصفا للكلام ويميز المتكلم بحسب أحواله من قصده وإرادته واعتقاده وغير ذلك من الأمور الراجعة إليه حقيقة أو تقديرا. وهذا مذهب فريد في التفكير البلاغي العربي إذ لا فرق بينه وبين ما يعرضه أوستن بداية تأسيسه لنظرية أفعال الكلام بافتراضه قسما جديدا سماه الأفعال الإنجازية[1]، التي هي الغرض والقصد الذي يبتغيه المخاطِب من الخطاب والفائدة التي يرجو إبلاغها للمخاطَب الذي يؤول المعنى ويفهمه استنادا إلى فعل انجازي وهذا ما يشمل ((دراسة مقاصد المتكلم وأدائه اللغوي والايعازي (الفعل الداخل في القول) والفعل الحاصل بالقول))[2]، فعند قول القائل: أطربا و أنت قِنْسرِيُ؟ فـ(أطربا ؟) فعل لفظي ينتظم في تركيب نحوي صحيح ينتج عنه معنى محدد هو المعنى الأصلي (الاستفهام)، لكن المتكلم على علم بان المخاطَب قد طرب، فالمتكلم لم يرد توجيه السؤال لعلمه بمضمون الحدث بل أراد التأثير بالمخاطب، فالفعل الغرضي أو ألانجازي لكلامه هو (التوبيخ والتنبيه)، أما الفعل التأثيري فهو امتثال المخاطَب لأمره، فحال المخاطَب مختلفة عن حال المتكلم فالمخاطَب يعلم ما هو فيه من حال مناقضة لطبيعة الأحوال المتصلة به، ولكنه ساه أو كالساهي، وأنه غير واع تمام الوعي بما يكتنفه من أحوال ولو كان واعيا لغَير من تلك الحال، أما حال المتكلم فهي حال علم بحال المخاطَب وعلم بطبيعة الأحوال المتصلة به، ووعي بما بينهما من تناقض لذلك كان قصده إلى توبيخه وتنبيهه، لكن المتكلم لم يتخذ لبلوغ ذلك القصد الألفاظ الموضوعة للتوبيخ والتنبيه، فيكون توبيخه مسلطا تسليطا فظا ولفظه مباشر، بل عمد إلى تجاهل العارف لتزجية المخاطَب وسوقه وحمله على الإقرار بنفسه بما كان فيه من مناقضة لطبيعة الأحوال فالفعل الكلامي نواة مركزية في التداولية وفحواه أن كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي ودلالي وانجازي وتأثيري ونحوي يتوسل أفعالا قولية لتحقيق أغراض انجازيه كالوعود والتهديدات والتأكيدات والأسئلة والطلبات والأوامر[1]، فأي ملفوظ ينطوي على افتراضات ومعلومات مضمرة، من شأنها أن تؤثر في تلقي النص وربما يتطلب ذلك أن يتشارك فيها المتحاورون _ المرسل

1- ينظر: التداولية من أوستن إلى غوفمان، فيليب بلانشيه /53 وما بعدها
2 – ينظر: النظرية النقدية التواصلية، حسن مصدق /126
1 – ينظر: التداولية عند العرب، مسعود صحراوي / 40

والمتلقي[2]، و((ينهض كل فعل كلامي على مفهوم القصدية التي يتحرى عنها عن طريق الربط بين التراكيب اللغوية ومراعاة غرض المتكلم والمقصد العام من الخطاب، ولا يتحقق المقصد التداولي إلا عندما يتوافر لدى كل من المتكلم والمخاطب معطيات وافتراضات معترف بها، ومتفق عليها بينهم يطلق عليها الافتراضات المسبقة أو المضمرات التداولية وهي محتواه ضمن السياقات والتراكيب اللغوي))[3]، و تجاهل العارف يدخل في نطاق التداولية التواصلية أي كلام مرسل يحمل قصدا ومعنى وفائدة يريد المتكلم إيصالها إلى المتلقي، فيكون الاستفهام فعل كلامي مباشر، وما يخرج إليه يعد فعلا كلاميا غير مباشر، لا يتحدد إلا بمعرفة المقام المعين ومختلف الملابسات المرتبطة بعلاقة المخاطِب بالمخاطَب وعلاقة الحدث بسائر الأوضاع الخاصة أو العامة التي تكتنفه، فأفعال الكلام تعد أهم مفهوم من مفاهيم التداولية التي تبين أهمية الإجراء الإخباري، لأنه يؤسس علاقة خاصة بين المتخاطبين، إذ التخاطب ينبني على أساس تأدية المتخاطبين لا أفعال الكلام التي تتعدد بتعدد الوظيفة الخطابية لها))[4].

نستطيع القول إن تجاهل العارف من انجاز المتكلم – فالفعل الإنجازي يرتبط ارتباطا وثيقا بمقصده – ومرتبط أساسا بالمتلقي أو السامع الذي عليه أن يبذل الجهد الكافي للوصول إلى هذا المقصد لأنه متوقف عليه فـ ((السامع هو من ينشا الخطاب ومن اجله وهو مشارك في إنتاج الخطاب مشاركة فعالة وان لم تكن مباشرة، فالمتكلم حين يراعي مقام الخطاب، وأحوال السامع وأشكال إلقاء الخبر إليه وأنماط الطلب ... وما إلى ذلك من ظروف الحديث المختلفة، فهو إنما يستحضر السامع في كل عملية أبلاغية...))[5]، وهذا ما وضحه الرازي في كلامه حين قال: ((إنا إذا تكلمنا بكلام نقصد منه تفهيم الغير، عقلنا معاني تلك الكلمات ثم لما عقلناها أردنا تعريف غيرنا تلك المعاني، ولما حصلت هذه الإرادة في قلوبنا، حاولنا إدخال تلك الحروف والأصوات في الوجود لنتوسل بها إلى تعريف غيرنا تلك المعاني))[1]، لهذا يقوم مفهوم قصد المتكلم الذي يعبر عنه بالإنجاز بدور مركزي في نظرية الفعل الكلامي.

وخلاصة ما تقدم نقول: إن من أهم اهتمامات البلاغة العربية ومجالاتها الإيصال والإبلاغ وتتناول خلال ذلك كثيرا من شروط هذا الاتصال وظروف أدائه، من أحوال مختلفة للمتكلمين، إلى كل ما يرتبط بالمعنى وملابساته، إلى معرفة أقدار السامعين ومنازلهم ... ولها لهذا المفهوم مجالات مشتركة مع ما تتناوله اللسانيات التداولية وتحمل كثيرا من القيم التداولية في اللغة.

نماذج تطبيقية:

– إن للانزياح الرتبي وهو ما أطلق عليه سيرل بـ (وسائل الإشارة للفعل الإنجازي)[2] دورا بارزا في الآلية التركيبية لتجاهل العارف _سوق المعلوم مساق غيره لأن سياقات التقديم تدور على اعتبارات يعود بعضها إلى المبدع وحركته الذهنية، ويعود بعضها إلى المتلقي واحتياجاته الدلالية ويلخص الثالث للصياغة ذاتها[3]، وهذا يدل على أن الانزياح الرتبي متوقف على العناصر التداولية مما يؤدي إلى اقترابه من الوجهة التداولية، فكلما زادت العلاقة بين المخاطِب والمخاطَب في موقف خطابي واحد برزت المعطيات التداولية وأصبحت علاقة الخطاب ايجابية، وكلما اضمحلت العلاقة بين المخاطِب والمخاطَب في موقف خطابي واحد ابتعد عن الوجهة التداولية وأصبحت علاقة سلبية، فضلا عن أن المبادئ التداولية تقوم على قصد المتكلم وغرضه ومن تحليل الخطاب على وفق مستخدميه، وهذا ما يلحظ في قوله تعالى: **((ءأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم، قال بل فعله كبيرهم فأسالوه ...)) سورة الأنبياء 62**

2- ينظر: التداولية محاولة لضبط الدرس اللساني تجريبيا، فالح حسن، بحث /15
3 – محاولة في مقاربة تداولية قراءة في قصيدة (من أوراق أبو نؤاس) لأمل دنقل، عبد الستار جبر، بحث /37
4 – ينظر: الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي، آمنة بلعلي / 68
5 – نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية مشروع لربط البلاغة بالاتصال، خليفة بو حادي، بحث /725-726
1 – التفسير الكبير: 21 / 48
2 – ينظر: علم لغة النص النظرية والتطبيق، عزة شبل /30
3 – ينظر: البلاغة العربية قراءة أخرى، محمد عبد المطلب / 238

فقوم إبراهيم عليه السلام لم يقولوا له ذلك وهم يريدون أن يقر بكسر الأصنام قد كان، ولكن أن يقر بأنه منه كان وكيف؟ وقد أشاروا إلى الفعل في قولهم: أأنت فعلت هذا؟ وقال هو عليه السلام في الجواب بل فعله

كبيرهم هذا، فـ(بل) إبطال لأن يكون هو الفاعل وجاء الخبر بعدها مستعمل في معنى التشكيك أي لعله فعله كبيرهم إذ لم يقصد ابراهيم عليه السلام نسبة التحطيم إلى الصنم الأكبر لأنه لم يدع انه شاهد ذلك ولكنه جاء بكلام يفيد ظنه بذلك اذ لم يبق صحيحا من الاصنام إلا الكبير [1]، فاستبعاد إبراهيم عليه السلام الإجابة عن هكذا سؤال بما هو متعارف عليه ب(نعم) أو (لا)، وقوله (بل فعله كبيرهم) إنكارا منه أنه الفاعل، وإلزاما بالحجة على انتفاء إلوهية الأصنام المحطمة، ((فلو كان التقرير بالفعل لكان الجواب (فعلت) أو لم تفعل.... فانه إذا قال (أفعلت ؟) فهو يقرره بالفعل من غير أن يردده بينه وبين غيره..... وإذا قال اانت فعلت ؟ كان قد ردد الفعل بينه وبين غبره ولم يكن منه في نفس الفعل تردد))[2] فدلالة النص لم تنجح إلا باستحضار جميع العناصر المشاركة في تأليف الخطاب وتوجيه مساره الدلالي ، فتقديم أحد جزأي التركيب وهو (الفاعل) على الآخر وهو (الفعل) يشكل حالة بلاغية تعمل على توجيه البنية الاسنادية بمسارات مقصدية يحددها وضع المخاطَب والمقام، فـ ((لا يقدم عنصر من عناصر الخطاب أو يؤخر إلا حين يكون ذلك مترتبا عن شروط تداولية أعمق تتكفل مسؤولية مطابقة المقال للمقام، ليستوعب المخاطَب الموقف الخطابي))[3] إذ الاستفهام في الآية (أأنت فعلت) يفيد التقرير الذي يحمل المخاطب على الاعتراف بموضوع قد استقر عنده في شك المتكلم ولذلك أوتي بذكر الشيء الذي يراد التقرير عنه أو به بعد الهمزة، فالتقرير للمخاطَب لذا جيء بلفظة تشير إليه (أنت) بعد الهمزة، وقد استعملت الهمزة في هذا النمط من الاستفهام لأن الفعل الواقع بعد الاسم يخصصه ويحقق نسبة الفعل إلى الاسم ويؤكدها، فالجمل في هذا النمط تتضمن جانبين الأول: معنى تقوية المسند إلى المسند إليه والثاني: معنى الاستفهام يطرح مسالة تحقق النسبة أو عدم تحققها، فالاستفهام معنى نحوي أولي أما التقرير المتحصل منه فهو معنى تداولي لم يتحدد إلا بعد معرفة حقيقة المقام المعين ومختلف الملابسات المرتبطة بعلاقة المخاطِب بالمخاطَب وعلاقة الحدث بسائر الأحداث والأوضاع الخاصة أو العامة التي اكتنفته، وهذا ما سيوضح بالخطاطة الآتية:

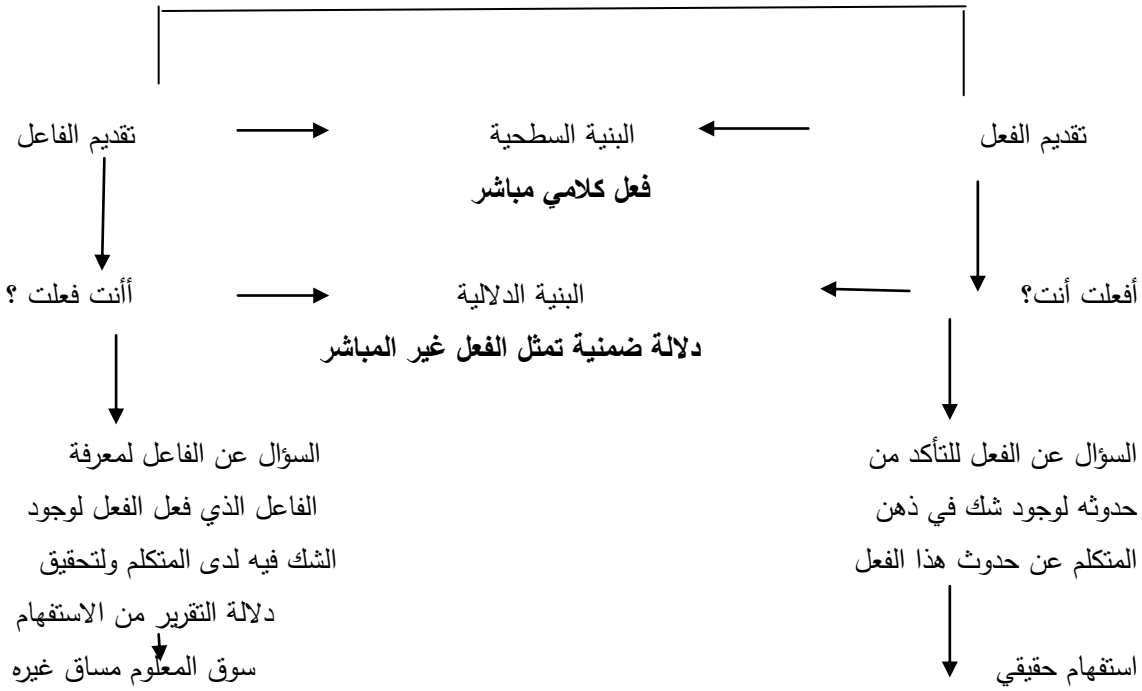

1 – ينظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور: 7 / 100-101
2 – دلائل الاعجاز، الجرجاني /113-114
3 – الانزياحات الخطابية والبيانية في كتاب دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني في ضوء المنهج التداولي، مهاباد هاشم، رسالة ماجستير /32

فقصد إبراهيم عليه السلام لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها في أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم بالحجة وتبكيتهم فوقع السؤال عن الفاعل لا عن الفعل ومع ذلك صدر الجواب بالفعل بالرغم من أنهم لم يستفهموا عن كسر الأصنام بل كان عن الشخص الكاسر لها.

ومنه قوله تعالى أيضا: ((ءانت قلت للناس اتخذوني وامي الهين)) سورة المائدة 116

فهذا سؤال من الله سبحانه إلى عيسى عليه السلام وليس باستفهام والفرق بينهما واضح، فالحق سبحانه يعلم الظاهر وما يخفى في الصدور لذا قال أبو عبيدة: ((هذا باب تفهيم وليس باستفهام عن جهل ليعلمه وهو يخرج مخرج الاستفهام وإنما يراد به النهي عن ذلك ويتهدده به وقد علم قائله أكان ذلك أم لم يكن ويقول الرجل لعبده أفعلت كذا؟ وهو يعلم انه لم يفعله ولكن يحذره))[1]، وقد قدم المسند إليه (أنت) في الإسناد على الخبر الفعلي في قوله: ((أأنت قلت للناس)) لا أن يقر بعدم قوله بل للتأكيد عليه بعدم قوله أي (لا تقل) فجاء الاستفهام متوجه إلى تخصيصه بالخبر دون غيره مع أن الخبر حاصل لا محالة فقول القائلين: اتخذوا عيسى وأمه الهين واقع وإنما القي الاستفهام لعيسى اهو الذي قال لهم ذلك وعيدا يتوجه عقوبة ذلك إلى من قال هذا القول أنهم المراد بذلك [2]، فأمامنا أفعال كلام غير مباشرة خرج إليها الاستفهام:

– التأكيد: ينتمي إلى التقريرات التي يكون الغرض منها تحمل المتكلم مسؤولية القضية المعبر عنها[32]، ويكون القول فيها مطابقا للوقائع والأحداث فكون عيسى لم يقل هذا الكلام أمر ثابت في المشيئة الإلهية عبر عنه في الآية الكريمة لذا نجد القول جاء مطابقا للواقع.

– الوعيد: ينتمي إلى التعهدات والغرض منها التزام المتكلم القيام بالعمل في الزمان المستقبل، ويكون قادرا على أداء ما يلزم به نفسه[3]، فالأثر المنجز في القول التعهد بعدم إخلاف الباري عز وجل لوعده، فالتأكيد يعد غرضا تواصليا استعمل من قبل المخاطِب لتثبيت الأمر في نفس المخاطَب وإزالة ما علق من بها من شكوك بكون عيسى هو قائل هذا الكلام أي للتأكيد أن عيسى عليه السلام لم يقل هذا الكلام، أما الوعيد ففعل الكلام المنجز للآية المصنف ضمن التعهدات بالرغم من ان البناء الشكلي للآية هو بنية الاستفهام الأمر الذي ينم على وجود قوة انجازيه لأفعال الكلام لا ترتبط دائماً ... بالصيغة النحوية التي تحملها، فالفعل اللغوي في اللغة العربية يتكون من مكونين، من الجزء ألإنجازي يسم نمط الفعل الكلامي – الاستفهام والجزء القضوي الذي يشتمل على مضمون الفعل مثل مضمون الوعيد في الآية، والثاني مرتهن بقصدية صاحب الخطاب فالقصد قرينة تمييزية تكسب التحليل أساسا تداوليا صريحا، أي أن القصد لم يكن عن سؤال عيسى عليه السلام عن القول أو مقولة القول وإنما الوعيد بتوجيه عقوبة إلى من قال هذا القول.

– ومما يلحظ في تجاهل العارف خضوع الاستفهام فيه إلى التصور الذي هو إدراك المفرد أي تعيينه [1]، ويكون ذلك عند التردد في تعيين احد الشيئين وتحديد المختص منها بالأمر الذي يعرفه المتكلم ويسأل عن صاحبه الحقيقي ليعرفه على وجه اليقين[2] كقول الشاعر:

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاي منكن أم ليلى من البشر

فالسائل يعلم بحصول أو وقوع النسبة بين المسند والمسند إليه وإنما هو يطلب التعيين والدليل على ذلك أن الجواب لا يكون بالنفي أو الإيجاب وإنما بتعيين ما يسأل عنه فالعلم بحصول النسبة أو وقوعها بين المسند والمسند إليه يكون مدخلا أساسيا للسؤال عن احد الشيئين وتحديد المختص منهما بالأمر الذي يعرفه السائل ويسال صاحبه ليعين له المخاطَب احد الأمرين تعيينا جازما قاطعا ويكون ذلك الأمر إذا وقعت (أم) بين شيئيين وقبلهما همزة الاستفهام التي يريد السائل بها وبـ(أم) تحديد أحد الشيئين وتعيينه لينحصر المعنى عليه وينسب إليه دون غيره.

1 – مجاز القران: 1/ 183-184
2 – ينظر: التحرير والتنوير: 3/ 113
3 – ينظر: الخطاب القراني دراسة في البعد التداولي، مؤيد ال صنوايت / 102
1 – ينظر: معجم المصطلحات البلاغية، احمد مطلوب: 1/ 182
2 – ينظر: النحو الوافي، عباس حسن: 3 / 589-590

فالشاعر لا يميز بين الأمرين هل ليلاه من الإنس أم من الوحش، وهنا توسعت الرقعة الدلالية لمورفيم الاستفهام (أ) بانصرافها من دلالتها الاستخبارية إلى دلالة الشك والتسوية، فالثنائية التركيبية بين الهمزة المحذوفة المعادلة بأم المتصلة أفادت دلالة (أيهما) التي يريد المخاطب تفسيرها بشأن أمرين غديا سواء في طلب الفهم، فالشاعر أراد أن يخبر أنه قد علم أيهما ثم أراد أن يسوي علم المخاطَب فيهما كما استوي علمه في المسألة حين قال: ليلاي منكن أم ليلى من البشر، فالفعل الكلامي التداولي عند الشاعر هو الشك والتسوية وهو فعل غير مباشر جاء على صيغة الاستفهام، فالمخاطِب يستعمل أكثر من آلية لإنجاز فعله اللغوي غير المباشر ذلك باستثمار المعطيات اللغوية والمعرفة المشتركة ليستطيع المخاطَب أن يفهم قصد المخاطِب عند تأويل الخطاب وهي المعاني التي تعارف عليها بالقصدية.

وختاما يمكنا القول:

إن البلاغة تمتاز بالإفادة وقوة التأثير التي تجعل النص اللغوي مثير ومؤثر وممتع، لأن عملية التأثير تضفي على وظيفة الكلام وظيفة تأثيرية جمالية مقنعة لكونها تعمل على جذب فكر المخاطَب إلى المخاطِب لتتواصل عملية التبادل الفكري، فالخطاب البليغ ((يمتلك وظيفة تأثيرية فعندما نفكر حسب المفاهيم البلاغية فإننا ننظر مبدئيا إلى النص من زاوية نظر المستمع والقارئ ونجعله تابعا لمقصدية الأثر))[1] فغدت التداولية في تجاهل العارف قاسما مشتركا بين أبنية الاتصال النحوية والدلالية والبلاغية لعنايتها بالشروط والقواعد اللازمة الملائمة بين أفعال القول ومقتضيات المواقف.

ثبت المصادر والمراجع

1- إشكالية المصطلح البلاغي دراسة تطبيقية في مصطلحات علم البديع، رسالة ماجستير، بإشراف أ.د. حسن الخفاجي، للطالبة ماجدة المذخوري، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب بغداد، 2004م.

2- الانزياحات الخطابية والبيانية في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني في ضوء المنهج التداولي، رسالة ماجستير، بإشراف: د. دلخوش جار الله، للطالبة مهاباد هاشم، جامعة صلاح الدين، كلية اللغات، اربيل، 2006م.

3- انغلاق البنية وانفتاحها في البنيوية والتداولية والبلاغة العربية، د. أسامة البحيري، من أعمال ندوة البلاغة العربية الواقع والمأمول، المملكة العربية السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1432هـ.

4- البديع، ابن المعتز، اهتم بنشره اغناطيوس كراتشوفسكي، لندن، 1935م.

5- بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، الكويت، 1992م.

6- البلاغة العربية قراءة أخرى، د. محمد عبد المطلب، ط1، مصر، 1997م.

7- البلاغة والأسلوبية (نحو نموذج سيميائي لتحليل النص) هنريش بليث، ترجمة وتقديم وتعليق: د. محمد العمري، بيروت، 1999م.

8- تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، بيروت، د. ت، د. ط.

9- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القران، تقديم وتحقيق: د. حفني محمد شرف، مصر.

10- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، تونس، 1997م.

11- التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، مسعود صحراوي، ط1، بيروت، 2005م.

12- التداولية محاولة لضبط الدرس اللساني تجريبيا، فالح حسن، مجلة الاقلام، دار الشؤون الثقافية، ع5، 2008م.

13- التداولية من أوستن إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة: صابر الحباشة، ط1، سوريا، 2007م.

14- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، ط3، لبنان، 2009م.

15- الجامع لأحكام القران، القرطبي، ط1، القاهرة، 2005م.

16- الحركية التواصلية في الخطاب الصوفي من القرن الثالث الى القرن السابع الهجريين، آمنة بلعلي، دمشق، 2001م.

1 – البلاغة والاسلوبية، هنريش بليش /24

17- الخطاب القراني دراسة في البعد التداولي، مؤيد ال صوينت، ط1، بيروت، 2010 م.
18- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مصر، 1984م.
19- الطراز، العلوي، تحقيق: عبد الحميد الهنداوي، بيروت
20- علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، سعيد حسن البحيري، ط1، القاهرة، 1997م.
21- علم الدلالة، احمد مختار عمر، الكويت، 1982.
22- -العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4، بيروت، 1972م.
23- الفروق اللغوية، العسكري، تحقيق: أبي عمروعماد الباروي، مصر، د. ط، د. ت.
24- كتاب سيبويه، أبو بشر عمرو، تحقيق: عبد السلام هارون، ط3، بيروت، م.
25- كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر): العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (د.ت).
26- مجاز القران، أبو عبيدة، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، ط2، بيروت، 1981م.
27- محاولة في مقاربة تداولية قراءة في قصيدة من أوراق ابو نؤاس لأمل دنقل، عبد الستار جبر، مجلة أقلام ن دار الشؤون الثقافية، العراق، ع5، 2008م.
28- المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة، تمام حسان، مجلة فصول، مج 7، ع3و4، 1987م.
29- معجم المصطلحات البلاغية، د. احمد مطلوب، المجمع العلمي العراقي، 1983م.
30- مفتاح العلوم، السكاكي، حققه وقدم له وفهرسه: د0 عبد الحميد الهنداوي، ط2، بيروت.
31- المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، السجلماسي، تقديم وتحقيق: علال الغازي، الرباط، 1980م.
32- نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية مشروع لربط البلاغة بالاتصال، د. خليفة بو حادي، من أعمال ندوة البلاغة العربية الواقع والمأمول، المملكة العربية السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1432هـ.
33- النحو الوافي، عباس حسن، ط5، مصر، 1975م.
34- نضرة الغريض في نصرة القريض، المظفر العلوي، تحقيق: نهى عارف الحسن، دمشق.
35- النظرية النقدية التواصلية (يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت) حسن مصدق، المغرب، بيروت، ط1، 2005م.